المبحث الأول:

حرية التفكير والاعتقاد في الإسلام

جعل الإسلام الحرية حقاً من الحقوق الطبيعية للإنسان، فلا قيمة لحياة الإنسان بدون الحرية، وحين يفقد المرء حريته، يموت داخلياً، وإن كان في الظاهر يعيش ويأكل ويشرب، ويعمل ويسعى في الأرض.

ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لشأن الحرية أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر، الذي لا ينتظر الإيمان بوجوده بتأثير قوى خارجية، كالخوارق والمعجزات ونحوها قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فنفي الإكراه في الدين، الذي هو أعز شيء يملكه الإنسان، للدلالة على نفيه فيما سواه وأن الإنسان مستقل فيما يملكه ويقدر عليه لا يفرض عليه أحد سيطرته، بل يأتي هذه الأمور، راضياً غير مجبر، مختاراً غير مكره[1].

الاحتفاء بالفكر

إن زمن القوة الإيمانية والقوة المادية،هو زمن نُصرة، الفكر، وفتح الحرية له وخير الأزمان التي مر بها الفكر هو عصور الإسلام الأولى إذ انطلق التفكير في النص والتفكير في التطبيق والتفكير في توليد الأعمال والمفاهيم واجتلاب الصالح منها بطريقة لم يسبق للأمة العربية أن عرفتها من قبل. ولا أثيرت الأفكار والمبادرات كما أثيرت في زمن الرسالة.. مما حدا بأحدهم أن يكتب كتاباً عن دولة الإسلام الأولى بأنها دولة

---

(١) الحرية مقصد الإسلام الرئيس، محمد عزت أبو النجار، ص ٨١.

الفكرة.. ففكرة الخندق وفكرة الخاتم ولباس الحلة للوفود بل وقبوله صلى الله عليه وسلم لقول أحدهم والحديث في البخاري: «اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»[1] وقبوله صلى الله عليه وسلم لها وتأييده.. ثم قبول التدوين والدواوين وغيرها. وهكذا الدول المؤثرة في العصور الحديثة نتاج فكر وممارسة لهذا الفكر.

حرية الفكر

إن الترتيب المنطقي للأمور يقتضي أن الحرية الفكرية هي معيار دقيق لنهضة الأمم؛ فالأمة التي ترعى الفكر وحريته تسود والذين يحقرونه ويطاردونه يذلون ويخسرون إن حرية الفكر تعني الإذن بالوعي وتعني فتح آفاق المعرفة تعني التخلص من تأسيس فرق الباطنية والفرق المفزعة المنحرفة المدمرة التي تنمو في الظلام وتجتاح المجتمع في أي لحظة بلا رقيب وبلا حساب من أحد تجد المجتمعات المغلقة مصيرها في أكف مجهولة وتحت إرادة فرق غريبة ومفاهيم شاذة والسبب هم الذين يرون سيادة معرفتهم وفهمهم ويغلقون على الناس الدروب فتنفجر في وجوههم ذات يوم بلا حساب ولا تقدير[2].

حرية التفكير تعني أن نفتح الباب لخير ما عندنا فنقبله ونتدارسه ونطوره ونجعله أكثر دقة وجمالاً وتعبيراً عن الحق والوحي والخير والعدل أما كبت الناس فتعني السماح بنشر الفساد تعني تدمير العقل تعني قتل روح الدين والتدين.[3]

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم(٧٩٩).

(٢) الإسلام وبناء الحضارة، قاسم النبهان، ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٣.

إن حرية الفكر ليست حرية تآمر وليست حرية فتنة ولا خلاف إنها خيرٌ عميمٌ ومصلحة للأمة تتجاوز الأفراد فلا يتفهمها ذوو المصالح الضيقة العاجلة.

إنها حرية الفكر التي سادت في عهد الرسالة وفي عهود السلف المبكرة والتي أنتجت المذاهب الإسلامية التي ننعم بخيرها وحرمنا من منهجيتها الرائعة التي بنت الأمة وأيقظت الهمة وأوقدت العقول وهزت الهمم وأصلحت الأمم.

حرية التفكير لا تعني شيئاً ما لم يصاحبها حرية التعبير فالتعبير هو الآلة التي توصل الفكرة.

فتتلازم الدعامتان: حرية التعبير ونضوج الفكر تلازماً مصيرياً لأن الفكر الذي قد يسود أو يجبر عليه الناس قد لا يكون صحيحًا ولا معقولاً وجهلاً مركباً ولكنه يستمد قوته من تحريم غيره[1].

وتلك من أهم مقومات المجتمع الإسلامي في لحظات بنائه الأولى ثم في مراحل قوته الكبيرة ومن قرأ العصر الأموي والعصر العباسي الأول الذي يقف عند نهاية القرن الثاني الهجري يجد حقيقة مهما كرهناها ولكنها واقعة وهي وجود حريات واسعة في المجتمع الإسلامي أثرت الحياة العقلية آنذاك وفيما بعد وقد أفادت مهما انتقد المتأخرون الكثير من تلك المدارس.

فقد جوز الإسلام للإنسان أن يقلب نظره في صفحات الكون المليئة بالحقائق المتنوعة، والظواهر المختلفة، ويحاول تجربتها بعقله، واستخدامها لمصلحته مع بني

---

(١) الإسلام والمدنية، محمد أمين الشماسي، ص ١٢٢.

جنسه، لأن كل ما في الكون مسخر للإنسان، يستطيع أن يستخدمه عن طريق معرفة طبيعته ومدى قابليته للتفاعل والتأثير،ولا يتأتى ذلك إلا بالنظر وطول التفكير[1].

* هذا ولإبداء الرأي عدة مجالات وغايات منها:

١) **إظهار الحق وإخماد الباطل**، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فالمعروف هو سبيل الحق،و لذلك طلب من المؤمن أن يظهره،كما أن المنكر هو سبيل الباطل،و لذلك طلب من المؤمن أن يخمده.

٢) **منع الظلم ونشر العدل**، وهذا ما فعله الأنبياء والرسل إزاء الملوك والحكام ويفعله العلماء والمفكرون مع القضاة والسلاطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

٣) **وقد يكون إبداء الرأي، بتقديم الأمور حسب أهميتها وأولويتها**، وهذا أكثر ما يقوم به أهل الشورى في أكثر من بلد[3]، و أكثر من مجتمع وقد يكون بأي أسلوب آخر، إذ من الصعب حصرها،و لكنها لا تعني أن يخوض الإنسان فيما يضره، ويعود عليه بالفساد، بل لا بد أن تكون في إطار الخير والمصلحة إذ الإسلام بتقريره حرية الرأي، إنما أراد من الإنسان أن يفكر كيف يصعد، لا كيف ينزل، كيف يبني نفسه وأمته،لا كيف يهدمها سعياً وراء شهوتها وهواها.

---

(١) العقل وصناعة الإنسان، علي أحمد الرفاعي، ص ٥٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٥١.

(٣) الحرية في الإسلام، هناء الغامدي، ص ٨٩.

وباستعراض التاريخ الإسلامي، نجد أن (حرية الرأي) طبقت تطبيقاً رائعاً،منذ عصر النبوة، فهذا الصحابي الجليل، حباب بن المنذر[1]، أبدى رأيه الشخصي في موقف المسلمين في غزوة بدر،على غير ما كان قد رآه النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه، وأبدى بعض الصحابة رأيهم في حادثة الإفك، وأشاروا على النبي صلى الله عليه وسلم بتطليق زوجته عائشة[2] -رضي الله عنها - إلا أن القرآن برأها، وغير ذلك من المواقف الكثيرة التي كانوا يبدون فيها آراءهم.

أرسى مجتمع المدينة المنورة في عهد النبي محمد ﷺ قاعدة لإقامة نسق تعاوني بين فئات الناس من مؤمنين وأهل كتاب في أمة واحدة.

---

(١) الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي ثم السلمي: صحابي، من الشجعان الشعراء، يقال له ذو الرأي قال الثعالبي: هو صاحب المشورة يوم بدر، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه، ونزل جبريل فقال: الرأي ما قال حباب، وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة وهو الذي قال عند بيعة أبي بكر يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، فذهبت مثلاً. مات في خلافة عمر سنة ٢٠هـ وقد زاد على الخمسين ٣. الإصابة: ١/ ٣٠٢

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان، من قريش: أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب. كانت تكنى بأم عبد الله. تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. ولها خطب ومواقف. وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعرا. وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. وتوفيت في المدينة سنة ٥٨هـ. روي عنها ٢٢١٠ أحاديث. الإصابة: كتاب النساء، ت ٧٠١ والسمط الثمين: ٢٩، وطبقات ابن سعد: ٨/ ٣٩، والطبري: ٣/ ٦٧، وأعلام النساء: ٢/ ٧٦٠، وحلية الأولياء: ٢/ ٤٣.

الوثيقة النبوية أقرت أصحاب الآراء على آرائهم وتكفّلت بحمايتهم كما هم. قام مجتمع المدينة على قاعدة نشر الدعوة مع احتضان الاختلاف. وليس مع تجاهله ولا مع محاولة إلغائه[1].

حاور النبي نصارى نجران في بيته في المدينة المنورة وأحسن وفادتهم.

وعندما حان وقت صلاتهم،أمر النبي بأن يتركوا لأداء صلاتهم ، كما ذكر ابن اسحاق في رواية [2].

إن العقيدة في الإسلام تستقر بالفكر اختياراً ولا تُلْصقُ باللسان قهراً وإجباراً. والقرآن الكريم يقول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] و«لا» هنا نافية وليست ناهية. أي أنها لا تعني لا تكرهوا الناس في الدين، ولكنها تعني أن الدين لا يكتمل وهو لا يكون أساساً بالإكراه.

على القاعدة السابقة النبوية في دولة المدينة الأولى، فإن الإسلام لا يضيق بتنوع الانتماء العقدي، ولا يؤمن بالنقاء العرقي: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[3].

فإذا كان التنوع من طبيعة تكوين المجتمع، فان الحوار هو الطريق الوحيد الذي يؤدي بالاختيار الحر وبالمحبة إلى الوفاق والتفاهم والوحدة. ذلك أن البديل عن الحوار هو القطيعة والانكفاء على الذات، وتطوير ثقافة الحذر والشك والعداء للآخر.

---

(١) دراسات في السياسة الشرعية، مصطفى محمد الزيات، ص ٩١.

(٢) التربية السياسية، د. منير الغضبان- در الوفاء ج١ ص ٥٤٣. بتصرف.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤١١.

والمنهج القرآني في الحوار يرشد إلى إنهائه بمهمة وأداء رسالة يبقى أثرها في الضمير، إن لم يظهر أثرها في الفكر، إنه أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسؤولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال[1].

* هذا ولدراسة مفهوم الحرية في الإسلام يجب البدء بأنواعه:

○ **أنواع الحرية:**

- الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية.

- الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية.

➢ **الصنف الأول: الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية**، وهذا الصنف يشمل الآتي:

الحرية الشخصية: والمقصود بها أن يكون الإنسان قادراً على التصرف في شئون نفسه، وفي كل ما يتعلق بذاته، آمناً من الاعتداء عليه، في نفسه وعرضه وماله، على ألا يكون في تصرفه عدوان على غيره[2].

*** والحرية الشخصية تتضمن شيئين:**

١) حرمة الذات: وقد عنى الإسلام بتقرير كرامة الإنسان، وعلو منزلته. فأوصى باحترامه وعدم امتهانه واحتقاره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]،

---

(١) انظر: فضل الله (محمد حسين)، الحوار أبعاد وإيحاءات ودلالات- مجلة المنطلق:، ١٦ عدد ١٠٥ - ربيع الأول ١٤١٤ هـ).

(٢) مفهوم الحرية في الإسلام، علي السنجابي، مجلة الولاء، العدد ٥٣ سبتمبر ١٩٩٩م.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وميزه بالعقل والتفكير تكريماً له وتعظيماً لشأنه، وتفضيلاً له على سائر مخلوقاته، وفي الحديث عن عائشة –رضي الله عنها– مرفوعاً: «أول ما خلق الله العقل قال له أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب»(١)، وفي هذه النصوص ما يدعو إلى احترام الإنسان، وتكريم ذاته، والحرص على تقدير مشاعره.

٢) **تأمين الذات:** بضمان سلامة الفرد وأمنه في نفسه وعرضه وماله.

ولن نتكلم كثيراً في هذا المقام؛ لأنها ليست مقصود البحث بذاته، بل ذكرت هنا للتنويه وأخذ الفكرة فقط.

➢ **الصنف الثاني: الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية**، و هذا الصنف هو المقصود بذاته لدراستنا هذه ويشمل الآتي:

حرية الاعتقاد: ويقصد بها اختيار الإنسان لدين يريده بيقين، وعقيدة يرتضيها عن قناعة، دون أن يكرهه شخص آخر على ذلك.

فإن الإكراه يفسد اختيار الإنسان، ويجعل المكره مسلوب الإرادة، فينتفي بذلك رضاه واقتناعه وإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] نجد أن

---

(١) قال العراقي: أخرجه الطبراني في الأوسط ٢/ ٢٣٦، بإسناد ضعيف. إحياء علوم الدين ١/ ٣٨.

الإسلام رفع الإكراه عن المرء في عقيدته، وأقر أن الفكر والاعتقاد لا بد أن يتسم بالحرية، وأن أي إجبار للإنسان، أو تخويفه، أو تهديده على اعتناق دين أو مذهب أو فكر باطل ومرفوض، لأنه لا يرسخ عقيدة في القلب، ولا يثبتها في الضمير، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] كل هذه الآيات وغيرها، تنفي الإكراه في الدين، و تثبت حق الإنسان في اختيار دينه الذي يؤمن به.

*** هذا.. و يترتب على حرية الاعتقاد ما يلي:**

١) إجراء الحوار والنقاش الديني، وذلك بتبادل الرأي والاستفسار في المسائل الملتبسة،التي لم تتضح للإنسان، وكانت داخلة تحت عقله وفهمه – أي ليست من مسائل الغيب – وذلك للاطمئنان القلبي بوصول المرء إلى الحقيقة التي قد تخفى عليه، وقد كان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحاورون أقوامهم ليسلموا عن قناعة ورضى وطواعية، بل إن إبراهيم –أبا الأنبياء عليه الصلاة والسلام – حاور ربه في قضية (الإحياء والإماتة) ليزداد قلبه قناعة ويقيناً وذلك فيما حكاه القرآن لنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

بل إن في حديث جبريل عليه السلام، الذي استفسر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة[1] دليل واضح على تقرير الإسلام لحرية المناقشة الدينية،سواء كانت بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين أصحاب الأديان الأخرى، بهدف الوصول إلى الحقائق وتصديقها، لا بقصد إثارة الشبه والشكوك والخلافات، فمثل تلك المناقشة ممنوعة، لأنها لا تكشف الحقائق التي يصل بها المرء إلى شاطئ اليقين.

٢) ممارسة الشعائر الدينية، وذلك بأن يقوم المرء بإقامة شعائره الدينية، دون انتقاد أو استهزاء، أو تخويف أو تهديد، ولعل موقف الإسلام الذي حواه التاريخ تجاه أهل الذمة –أصحاب الديانات الأخرى– من دواعي فخره واعتزازه، والتي سوف نتحدث عنها تفصيلاً في المبحث القادم إن شاء الله وعن الإسلام، فمنذ نزل الرسول صلى الله عليه وسلم يثرب – المدينة المنورة – أعطى اليهود عهد أمان، يقتضي فسح المجال لهم أمام دينهم وعقيدتهم، وإقامة شعائرهم في أماكن عبادتهم[2].

ثم سار على هذا النهج الخلفاء الراشدون، فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل إيلياء – القدس– معاهدة جاء فيها: [هذا ما أعطاه عمر أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً على أنفسهم، ولكنائسهم وصلبانهم، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صلبهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم][3].

---

(١) الحديث مشهور وقد رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان، رقم(٨).

(٢) مفهوم الحرية في الإسلام، علي السنجابي، العدد ذاته.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٤٤٩.

وها هم علماء أوروبا اليوم، يشهدون لسماحة الإسلام، ويقرون له بذلك في كتبهم.

قال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): (إن الإسلام الذي أمر بالجهاد،متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان –على الخصوص– لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها) أي: مدينة القدس[1].

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ميشود، ترجمة عبد الرحمن الحقيق، ص ١١٦.